محاربة الفقر عبر النمو

اعداد الدكتور لويس حبيقة
خبير اقتصادي واستاذ جامعي

يبقى الفقر من أهم مشاكل الألفية الحالية لانعكاسه على الاستقرار السياسي والأمني كما الاقتصادي والاجتماعي. سبب الفقر هجرة الملايين من قارات الى أخرى سعيا وراء لقمة العيش. مصادر الهجرة تغيرت كثيرا مع الوقت تبعا للظروف المعيشية والسياسية. الدول المستقبلة تغيرت أيضا تبعا لحاجتها لليد العاملة المدربة ونوعيتها. كل الدول تسعى اليوم الى تحديد الهجرة في الاتجاهين تجنبا للخسائر كما تخفيفا لتكلفة الاستيعاب المهمة. للهجرة خصائص تؤثر على الموازنات والنمو وتكلفة الضمانات الاجتماعية والصحية. هنالك أسباب اقتصادية مرتبطة مباشرة بالهجرة. لكن هنالك أيضا أسباب أخرى مرتبطة بالأديان واللغات والحفاظ على مستوى المعيشة وغيرها. بين سنتي ١٨٥٠ و١٩١٤، خسرت أوروبا ربع يدها العاملة أو عشر سكانها التي توجهت الى أميركا واستراليا وغيرها. اليد العاملة بحد ذاتها ليست مصدرا أساسيا للنمو. انما اليد العاملة المتعلمة المدربة الكفؤة هي كذلك وهنالك منافسة دولية لاستقطابها.

من ناحية الدول المصدرة للمهاجرين، تغيرت الخريطة كثيرا بسبب الحاجة والتطور الاقتصادي. في فترة ١٨٢١ - ١٨٩٠، ٩٠٪ من المهاجرين أتوا من أوروبا معظمهم من الشمال والغرب الأوروبي. في فترة ١٨٩١-١٩٢٠، ٨٩٪ أتوا من أوروبا الا أن الأكثرية قدمت من الشرق والوسط الأوروبي بالاضافة الى جنوب القارة القديمة. في فترة ١٩٩١ - ١٩٩٨، فقط ١٤,٣٪ هاجروا من أوروبا مقابل ٤٩,٣٪ من القارة الأميركية (الجنوب خاصة) و ٣٢٪ من أسيا والبقية من أفريقيا. تحصل الهجرة لتحسين مستوى المعيشة. فعندما تحسنت في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية خفت الهجرة منها بل أصبحت تستقطب المهاجرين اليها من الدول العربية وتركيا ومناطق نفوذ الاتحاد السوفياتي السابق. كانت الهجرة النوعية مصدر أساسي للنمو وما زالت ضمن شروط مقيدة أكثر. لكنها واضحة ومتغيرة تبعا لحاجات وقدرة الدول المستقبلة.

من مصادر النمو الأساسية هي الصحة والتعليم اللذان يعتبران أهدافا بحد ذاتهما. كل شيء يبدأ من الغذاء الجيد. اذ تثبت الدراسات أن الأطفال الذين لا يحصلون على غذاء صحي لا ينجحون في الدراسة وتكون صحتهم عموما دون المستوى. ليس كل التعليم مفيد بنفس الدرجة للنمو. وذلك تبعا لواقع الدولة والمجتمع. التعليمان الابتدائي والثانوي مفيدان جدا خصوصاً للدول الواقعة في فترات تنمية بدائية أي عمليا الدول النامية وأكثرية الدول الناشئة. التعليم المهني والتقني مفيد جدا خصوصاً في الاقتصادات المتقدمة التي تحتاج الى التقنيين والحرفيين الكفوئين. هنالك دول فقيرة تستثمر كثيرا في التعليم المهني والتقني ليس لحاجته له، وانما لاعطاء المتخصصين فرص عمل ليس في الداخل وانما في العالم المتطور عبر الهجرة.

التعليم في كل حال جيد جدا، لكن الأهم هو قدرة الشباب على الحصول عليه بتكلفة مقبولة. لا يتوافر الاقتراض للعلم في كل الدول، وبالتالي يكون التعليم الجيد أحيانا مقفلا أمام الطبقات غير الميسورة وهذا يضرب فرص التنمية المستقبلية. هنا تكمن أهمية وجود منح تعليمية كافية لتوفير الفرص خاصة للمجتهدين بحيث لا يذهبوا ضحايا القدرات المالية. أما في الصحة، هنالك عوائق أساسية أمام المجتمعات الفقيرة التي تعاني من أمراض منتشرة بسرعة وقوة بين شعوبها وليست هنالك قدرة للحكومات على المحاربة الفاعلة. تكمن المشكلة أيضا في ان الانفاق الدولي على الصحة يركز على حاجات الدول الغنية بل المواطن الغني اينما يكن ويهمل الفقراء الذين لا قدرة لهم على توفير الأرباح للشركات أو على توفير التمويل للبحوث الضرورية.

لا يمكن تحقيق نمو فاعل يضرب الفقر من دون سياسات صحية وتعليمية وغذائية متكاملة وجيدة. اهمال هذه الضرورات يدفع الى الهجرة القسرية مما يسبب سؤ الاستقبال في الدول التي لم تدعهم أصلا. لا يمكن محاربة الفقر فقط عبر سياسات تنفذ من الأعلى أي الحكومات نحو الأسفل أي الشعوب. المطلوب تنفيذ سياسات في المستويات الشعبية السفلى والمتوسطة تستطيع النهوض بها الى المستويات العليا بحيث تكفي نفسها وتساهم في نهضة بلادها وتخفف الرغبة في الهجرة. يقول الاقتصادي «سولو» أن ارتفاع الدخل الفردي لا يأتي فقط من توافر الادخار الداخلي وارتفاع عدد السكان، بل تحتاج الاقتصادات الى التقدم التكنولوجي. لم يوضح «سولو» لماذا تختلف نسب نمو الناتج الفردي بين مجتمعات أخرى تتمتع بنفس درجات التقدم التكنولوجي. لم يتطرق «سولو» الى قدرة المجتمعات على الاستيعاب والتي تؤثر حكما على النتائج النهائية.

في الهند مثلا وبين سنتي ١٩٥٠ و١٩٧٥، ارتفع الدخل الفردي سنويا بمعدل ١,٨٪ أي تضاعف مرتين خلال ٤٠ سنة. في فترة ١٩٧٥ - ٢٠٠٠، ارتفع الدخل الفردي الصيني بمعدل ٦٪ سنويا أي تضاعف خلال ١٢ سنة فقط. هذه فروقات كبيرة في وقت واجه الاقتصادان نفس التحديات التكنولوجية واستوردا المتطور منها من الغرب لكن الاستيعاب كان مختلفا. الفارق بين الصين والهند هو أن الأولى استقدمت التكنولوجيا وغيرتها بل أعادت تركيبها لمصلحة الواقع الداخلي مما جعلها ذات فائدة أكبر بكثير. الحقيقية هو أن الدول الفقيرة تحتاج عموما الى أفكار جديدة وليس الى سلع كثيرة، اذ أن النجاح في الأولى يضمن الحصول على الثانية مع الوقت وبتكلفة أقل. لا يمكن لأي دولة أن تحافظ على مستوى نموها عبر نسخ الأفكار والسلع والخدمات الخارجية، بل يجب أن تصبح منتجة أو أقله مطورة لها. لن تنبع هذه الأفكار من تلقاء نفسها، بل يجب وضع حوافز قانونية ومالية تشجع المبدعين وحتى العاديين على التفكير والخلق والابداع.

تحتاج الدول النامية والناشئة الى تنشيط الابداع في الآداب والعلوم أي الاعتماد أكثر فأكثر على المعرفة. الآداب تعطي نوعية بل نكهة جيدة للحياة. أما العلوم فتعطي القدرة المالية لتطوير العلوم والآداب في نفس الوقت. لا يمكن لمجتمع أن يكون متطورا في احداها فقط، بل انهما متكاملان بالرغم من الفوارق الكبيرة في الخصائص والنتائج. المعرفة وليس الغنى المادي هي أساس التطور في القرن الحالي، ومن لا يدرك ذلك سيتأخر مع الوقت. لا تطبق المعرفة فقط على الأشخاص وانما على الشركات والمؤسسات بحيث تصبح المرونة في الحركة والتغيير والانتاج والادارة هي أساس النجاح والتقدم. فالوحدات المرنة تخفف حكما من الهدر وترفع انتاجية عوامل الانتاج، بحيث يمكن نقل الأشخاص بسهولة بين وظيفة وأخرى دون التأثير سلبا على الانتاجية بل العكس صحيح أحيانا. فبينما حلت ماكينات الانتاج مكان العامل في فترة الثورة الصناعية، أصبح العكس صحيحا اليوم اذ أن الاقتصادات الحديثة تعتمد على المعرفة أولا التي هي أساس التقدم والتطور كما البحبوحة.

في العقود القليلة المقبلة سينزح حوالي ٣ مليارات شخص الى المدن للاستفادة من وسائل الراحة المتوافرة داخلها. المهم أن لا ينتقلوا الى أحزمة البؤس، بل أن تجد الدول وتبعا للاقتصادي «رومر» مناطق نموذجية تسمح لهم بالعمل والتواصل والعيش الكريم. حازت جزيرة «موريشيوس» على استقلالها سنة ١٩٦٨ وكانت فقيرة، لكنها خلقت مناطق نموذجية مناسبة للاستثمارات ونجحت. تحتاج الدول كما كان الحال في «موريشيوس» الى قيادات ملتزمة بشعوبها وتطورها، فتستقطب الاستثمارات اليها بحيث تستوعب الأعداد الكبيرة الآتية الى المدن أو تشجع بعضها على البقاء في الريف.

تطوير الزراعة والصناعة للنمو والتنمية ضروري لكنه يتطلب الكثير من الجهد والموارد. هنالك امكانية لتطوير السياحة في الدول النامية والناشئة التي تتمتع بجمال طبيعي فريد وغير معروف عالميا حتى اليوم. لماذا لا تقوم هذه الدول بجذب السياح؟ السياحة لمحاربة الفقر تنجح وهنالك دول تركز عليها اليوم. فالسياحة تسمح باستيعاب يد عاملة محلية وتحسن أوضاع الشركات المتخصصة من مطاعم ومقاهي وفنادق وغيرها. مصادر النمو متوافرة للجميع.